الصحفي والأديب طه حيدر الكعبي في ذكرى رحيله السادسة

"كلوا يا صفيراتي فالأكل حرب" أوصى بها صفيراته لأنه عانى من الجوع عبر دروب المنافي

لم يكن زميلاً فحسب بل كان أخاً وإنساناً استقطب حب من حوله

خُيِّر أين يدفن وهو في الأردن فغلب في داخله عشق عدن على حبه لبغداد ودفن فيها

كان صحافياً وشاعراً أخفى نفسه وإعلامياً له صولات وجولات في بلاط صاحبة الجلالة

نظر إليهن بحنان أثناء جلوسهن على مائدة الطعام الذي حمله إليهن من أحد المطاعم المشهورة بمدينة كريتر، ورغم الفتهن به إلا أنهن لأول مرة يجتمعن معه على مائدة طعام.

على استحياء أكلن معه ولاحظ ذلك فهتف بهن يحثهن على الأكل قائلاً "كلوا الأكل كله يا بناتي الصغيرات، فالأكل عبارة عن حرب" ثم نهض مودعاً البنات الصغار.. ومضى ومضت به السنون لترميه إلى هاوية الردى.

ليلة وفاته ظلت الصغيرات يتذكرن تلك اللحظة وتلك الوصية... ولا يعلمن لماذا قالها لهن ومضت دموعهن منهمرة حزناً لفراق العم طه.

ذلك الرجل كان الأستاذ والصحفي والأديب طه حيدر.. الذي يصادف يوم السادس من يونيو ذكرى رحيله....!!

سلوى صنعاني

واغيبتك يا أبا حيدر

عدت بذاكرتي إلى تلك الأمسية التي ودعت فيها صغيراتي مغادرة إلى خارج الوطن وقد وصيت زميلي وأخي على صغيراتي... وكان الرجل والإنسان طه حيدر وكما عرفته شهماً ونبيلاً وصادقاً في كل مشاعره... واخترته هو دون الناس المحيطة بي من أهل وأقارب وأصحاب لحمل الأمانة.

فكان عند حسن ظني وهكذا عهدته خلوقاً ومحباً ووفياً لكل من حوله من أصدقاء وزملاء.

ذكريات ومواقف كثيرة ذات وجوه متعددة جمعتني وطه أثناء عملنا في بلاط صاحبة الجلالة، وعشنا معاً الحياة بحلاوتها ومراراتها فهو من أقرب الزملاء إلى نفسي ومعه الزميل الراحل والكاتب الفذ أحمد مفتاح. ومثلما عهدته بنبله ووفاءه وحنانه عهدت فيه الشجاعة والرفض لكل ما هو معاد للإنسانية من قهر وظلم الأمر الذي جعله لدى بعض المتسيدين في صحيفة 14أكتوبر في دائرة الاستهداف. فقد عانى من الألم والعذابات وظل يكابد مرارة الغربة والبعد عن الوطن وكان مع ذلك ناجحاً وإنسانياً في كل علاقاته... مستقطباً حب الجميع، وبقدر ما كان من حوله محب له... كان هو محباً لهم.

طه حيدر الكعبي ابن بغداد التي حملها بين حناياه واجبر قسراً على الهروب منها تجنباً لبطش نظامها القاهر حاله حال الكثيرين من المثقفين في هذا الوطن العربي والذي لا يقبل حرية الرأي الآخر ويعاني من قمع وتعسف سلطاته المهيمنة. فكانت المنافي الغريبة ودروب الآلام والجوع والتشرد في المرافي البعيدة وسهر الليالي تحت سماوات غريبة كانت وطناً له كغيره من الشرفاء.

غادر بغداد ليلاً ليصل إلى دمشق ثم ليبيا ثم بلغاريا فاليمن التي استقر به المقام فيها وتنقل بين جنباتها وكانت حنونة عليه... استقر في زنجبار فجعار فعدن وعمل في البداية مدرساً للرياضة وهو المتخصص الحاصل على بكالاريوس في الرياضة من جامعة بغداد. ثم انتقل بعد كتابات عديدة إلى صحيفة 14أكتوبر ليرأس القسم الرياضي وكان فارساً في هذا المضمار. ثم انتقل ليصبح رئيساً لدائرة التحقيقات التي مررنا جميعاً خلالها... وكان ناجحاً للغاية في نسج علاقات الزمالة ثم عمل رئيساً لقسم الإعلانات ونسج أيضاً علاقات طيبة مكنت الصحيفة من جذب الكثير من الإعلانات بحكم دماثة أخلاقه وحب الناس له. هذا غير تلك القدرات والكفاءة التي تمتع بها الرجل في مجال الصحافة والإعلام. ولم يكن طه رياضياً لم يسفر عن نفسه وبل وأديباً جميلاً في مجال القصة وقد صدرت له مجموعة قصصية بعنوان (وشمان للحبيبة والأرض) وأخرى لم تر النور بعد.

وظل طه الزميل والأخ والإنسان يحمل في داخله عذاباته لبعده عن وطنه وإن كانت عدن موطنه والتي أوصى خلال فترة مرضه بأن يدفن في تربتها الحبيبة بالقرب من أبنائه الأربعة.

رحل طه حيدر بعد معاناة مع مرض السرطان وكان قد غادر إلى الأردن وهناك عرف من الأطباء حقيقة مصيره وبرفقته زوجته الفاضلة التي وضعته أمام اختيار موطنه الأخير.. إما بالسفر من عمّان إلى بغداد التي كانت أقرب إليه من عدن جغرافياً للبقاء فيها والموت هناك أو العودة إلى عدن... فرجح عشقه لعدن الكفة... وعاد إليها ليمضي معنا أشهراً معدودة ورحل يوم السادس من يونيو والتي يصادف الأسبوع الماضي ذكرى رحيله السادسة وأغمض عينيه ولم يكتمل الحلم الذي عاش له وهو العودة إلى الحبيبة بغداد وإلى الأهل والديار. فدفن في مقبرة القطيع بكريتر عصر ذلك اليوم... تاركاً لنا آلام فراقه وغيابه الذي مازال قائماً إلى يومنا هذا ولم يستطع أحد أن يملأه بعد رحيله.

كم يؤسفني أن اختصر عبر هذه السطور مشوار الآلام والعذابات والمعاناة لهذا الرجل ولكنني افتقده كثيراً... وأقول له واغيبتك يا أبا حيدر.

قصتان للصحفي الأديب طه حيدر

الأقدام الثقيلة

حاول أن يسرب جسده المنهك بحذر بين مجموعة من الناس كانوا يتحلقون بدوائر تتسع هنا، وتضيق هناك، ولكن الخوف من اكتشافه كان يصاحبه، مع أنه يشبه الكثير من أهل مدينته، بسمرته الداكنة، فتصور جسده يتضخم بشكل مفجع، ترافقه علامات فارقة تتجسم، كأنها زرعت تواً له لتعلن عنه رغم تيقنه من هوياته الشخصية ـ الرسمية ـ والمؤشر فيها على صقل العلامات الفارقة كلمة (بلا).

ومما زاد في إرباكه، سماع الأصوات المتبطرة لوقع أقدامهم الثقيلة، سرق نظرة من فجوة إحدى الدوائر البشرية، فشاهد أجساماً خبيثة تحملها تلك الأقدام الثقيلة، وأنبهر ولكن ضيعت أنبهاره موجة غمرته من بشر لا يعرف أين مسارهم ... فكانت كطوق حصنه ـ من أصحاب الأقدام الثقيلة، وضاع في الزحام الدائري.

انفرط عقد الموجة البشرية، فحاول أن يتسلل بعينه لمعاينة الطريق الذي يبغيه ـ ولكن الخوف مازال برفقته، خاصة وأصحاب الأقدام الثقيلة منتشرون في أرجاء المدينة الصماء، التي يبدو أن أهلها عقدوا ألسنتهم، واستبدلوا الفرح بالحزن بلا إكتراث ـ كأنهم يستبدلون حذاء بحذاء ..

فتساءل مع نفسه وبمرارة: أن ألسنتهم السيفية، وفرحهم الماجن، أما هو ـ فحقا فقد الفرح، ولكن لم يرتد الحزن، وفمه ذلك الفم الذي تعرف عليه منذ أربعة وثلاثين عاما (سنون عمره) مازال مفتوحاً، فأعثرته دهشة مصحوبة بغثيان تقلصت على أثرها عضلات وجهه كأنه وجه شيخ عجوز ـ ركب عنوة على جسم فتى.

جاهد كثيراً لكي يستجمع ما تبقى من جرأة قديمة يمتلكها بأكملها فنظر إلى الطريق، هو يحسب (بحالة من اللافرح وبعيدة عن الحزن) المسافة المتبقية .. لم تبق غير مائة متر أو أكثر بقليل، لدخول البيت، الذي عاش فيه أحلى أيامه، وغادره قسراً منذ سنين ثلاث، ولكن على حين غرة لاحت أقدامهم الثقيلة، فعاد جسده يلعب لعبته الخبيثة، يتضخم بوضع أكبر من السابق.

(سيفضحني) وبدأت علاماته اللافارقة تكبر ... يا للهول مائة متر ... الميل يأكل الميل، وسيارة تبتلعني، فتقززني ـ جثة ـ متعبة لسيارة أخرى ولكن بالمائة متر ... سيكتشفوني ... ولكن الزجاج الخلفي الملمع للسيارة الواقعة خيب ظنونه وبرد خوفه.

سار بخطوات مرتبكة، وبعيون حذره، تكاد تفضحه، .. يا رجلي أين الجرأة السابقة .. خاطب رجليه موبخا .. نط إلى السيارة تجاوزه أجزاء هيكلها الخلفي، كانت مكتظة بأناس أعينهم بمثابة الألسنة.

(الهويات) نطق بها صوت أجش، وبنبرة فاقت بحدتها فعل الأمر .. وتسابقت الهويات الشخصية ... انسلت يده بشكل لا إرادي ـ مستخرجة الهوية القديمة التي اختفت بين الهويات الأولى لتشابه لونها، والتي لو قرأها صاحب الصوت الأجش لكان صاحبنا في وضع لا تحمد عقباه .. ولكنه أدار وجهه .. وأدار محرك السيارة.

(قف .. قف)

(قف أخي) منادياً السائق، هذا المكان الذي ابغيه (تسلل وارتسمت على وجهه فرحة يشوبها توجس، ولكن التوجس غادره عندما لاحت الشجيرات التي زرعها أمام بيت أهله، وأطفال ـ محلته ـ الذين طالت قاماتهم أشباراً أخرى. لاحظه الأطفال بفضولهم المعهود، ولكن تغير، فسرعان ما عادت أنظارهم إلى لعبهم.

وقف عند الباب وكانت رهبة المكان بادية عليه كمن يقف أمام محراب مسجد يطلب الغفران، لانقطاعه الطويل .

بعد أن كانت قدماه تشبعان الطريق إليه بالقبلات .. تحس الشجيرات برقة، قبلها، كالذي يتوسل حبيبة غاضبة، سقطت دمعة حارة، ولكن غصن إحدى الشجيرات، لطمه، ماسحاً الدمعة ليؤكد رفض القبلة لمن لا يعرفه.

كيف يلاقي أهله ؟! .. تحير، ضاقت أنفاسه شحب لونه، ضاعت الكلمات من فمه .. وراحت إحدى يديه تبحث عن الجرس حينها مسحت دمعة نافرة، استقرت في حديقة عينه بعناد .. وجاءه صوت أجش، يركب اقداماً ثقيلة.

ثمن مبيت جثة

تعب السؤال ... إذ كلما طرق باباً يسأل عن ولده كان الجواب يصله شحيحاً في اغلب الحالات وفي أخرى يسأله الذين يفترض منهم الإجابة.

ذات السؤال ، لم يدلف إلى بيوت معارفه حيث يفرق الجواب مسبقاً ، لم ييأس.

حدث نفسه: تتفتت خيوط الليل ، وابدأ رحلتي المقبلة وبخوف من ينتظر المجهول عاود السؤال . في مستشفيات المدينة مخافر الشرطة .. كان يتحصل على إجابات كسولة متراخية (لا يوجد احد بهذا اسم).

يتهاوى على أول أريكة في بيته كملاكم خسر جولة يحاول أن يسترد أنفاسه.. ولكن الأفكار والاحتمالات تحاصره تضيق عليه يتخيل نفسه في قارب متعب وسط بحر هائج تطارده أمواج غاضبة تغطيها ريح عاتية وبمجداف واحد يصارع الأمواج والريح يصارعها تهشم الأمواج المجداف الواحد فيما تتقاذف الرياح القارب المتعب.

يرن جرس الباب الخارجي رنات طويلة .. يجفل يتمزق الكابوس يرفع بصيرته التعبى ... رنات الجرس بإيقاعاتها الحادة تؤكد له بأن الطارق ليس ابنه يفتح الباب قليلاً .. تدلف أصوات جشه ... يعاين من تقيأها أجساداً غلاظاً ارتدت ملابس رقيقة الملمس ، بيضاء كالفن... يبدون خلالها كأمراء بدو، البسوا زياً غير زيهم... استغرب هيأتهم ، ولكنه لم يستغرب أناقتهم إذ حينها كانت الشمس تجرجر أذيالها خجلى، وهو وقت لحفلات الكوكتيل ، وهمهم " قطعاً " اخطاؤوا البيت !!

اتجه نحوهم.. أراد أن يقول الكلمة، التي صارت عرفاً ، تفضلوا ولكن احدهم رماه مظروفاً .. قبل أن يلتقطه... صرخت عجلات المرسيدس ، ما أن فتح المظروف حتى تزاحمت قطيرات صغيرة في عينه ، ثم انسابت بانسيابها بددت صرخة كادت تحرقه لكأنها تقول :" لا جدوى من الصراخ".

أخذ المظروف بيدين فقدتا قدرتهما وراحت قدماه تسحبان جسده الخاوي ، حيث العنوان كمتسول أنهكه الجوع .. همس عند باب البناية العصرية جداً ، ناوله المظروف. دخلا سوية.. واجهه تيار هوائي شديد البرودة كور كتفيه وضم يديه إلى صدره سارا في ممر طويل.. ارتعش سرت في جسده قشعريرة إذ رأى اناساً يغادرون البناية وهم يحملون توابيت وعلى وجوههم ارتسمت علامات حيرة وآخرين ذوي وجوه مكفهرة يدخلون حاملين بلا اكتراث جثثاً كمن يحمل صندوق قمامة... ثم توقفا عند باب .. فتحه الآخر .. ارتاع .. ابتسم الآخر بخبث ، نظر .. رفوف .. مساطب برادات كلها ملأى جثثاً يضغط الآخر زراً كهربائياً تفتح برادة فيها جثث محتشدة يمد يده تدور.. يدور يسحبها.. يمط شفتيه يضغط زراً آخر رؤوس ملأ .. أعين مفقودة... زر ثالث آخرون يدفعون جثثاً أخرى تتكاثر الأزرار عيناه تتقافزان ... جثث جديدة تدفع داخل البرادات وأخرى.. تسحب خارجاً .. جثث مسجاة على الأرض ودماء يبست ، جثث تحمل نياشين وأخرى لا توصف يكلم نفسه لولا زحمة المكان لما أرسلوا بطلبي لاستلام الجثة.

راح الآخر يقلب الجثث كبائع خردة ، يبحث عن سلعة مطلوبة تواً في محله المكتظ فيما راح هو في دوامة الحسرة.

غدت أحلى الآمال جثة مبردة بعد أن وهبت حياتها للآخرين تمنحهم دفئاً وتهدي الناس رحيق عمرها) احترس يا بني فأني أرى صقوراً تحوم ملوحة بمخالبها).

وأيقظه الآخر .. خذ ناوله ورقة مكتوباً عليها بخط مطبوع اسم ابنه واسمه.... وأرقاماً حسابية 7000 دنانير ثمن التابوت. 385 فلساً ثمن التبريد.

2.290 ديناران ومائتان وتسعون فلساً ثمن أيام المبيت

9.675 تسعة دنانير وستمائة وخمسة وسبعون فلساً فقط لاغير وثبتت تحت ملاحظة : تدفع قبل استلام الجثة.

طه الكعبي.. من وحي أيام العمر

عبدالقوي الأشول

■ مستشار رئيس الجمهورية سالم صالح والزميل الفقيد طه حيدر وعبدالقوي الأشول وفضل مبارك

حين دعتني الزميلة الصحفية سلوى صنعاني للكتابة عن الزميل الراحل الصحفي طه حيدر محمد الكعبي في ذكرى رحيله لم تكن تعلم أنها إنما نكأت جرحاً عميقاً في ذاتي لا يمكن أن يندمل بمرور الأيام .. لما لبعض الزملاء الذين نعايشهم من تأثير سحري على نفوسنا، بل إن حضورهم بيننا كان يمثل الشيء الكثير.

الزميل طه حيدر محمد الكعبي بغدادي الأصل عدني الهوى .. بهذه الثنائية العجيبة وجد ذاته مشطوراً بين دجلة والفرات ومدينة في خليج عدن تملكه عشقها منذ ربع قرن من الزمن.

- هذه الثنائية التي لم تكن تخطر بباله قط حينما كان شاباً فتياً في شوارع بغداد إلا أن بعض المواقف الحياتية تباغتنا هكذا بقدرية مطلقة ولا نجد بداً من التعايش معها.

- وهكذا الحال بالنسبة لأستاذنا الكعبي سليل إحدى أعرق الأسر البغدادية أما حين وجد نفسه هنا في عدن .. في محيط زملاء المهنة الصحفية فلم يكن منه إلا أن بدأ التعايش مع هؤلاء النظراء الذين لا يجد في أحلامهم وتطلعاتهم ما يختلف عما لديه.

من هنا كان الشعور بالانتماء عميقا في كتابات طه حيدر الكعبي .. كما هي في أعماله القصصية، عمل في مختلف الأقسام الصحفية وتحمل مسؤولية العديد منها بجدارة كما عمل مراسلاً لبعض الصحف الخليجية وظل يمتاز بدرجة عالية من المهنية والنزاهة ونذكر له نحن زملاء مهنته بل أسرته الثانية في صحيفة 14أكتوبر أدواره الصحفية المهنية المتميزة عبر رئاسة أقسام الصحيفة المختلفة.

الأمر الذي شكل إضافة نوعية لعدد من أساتذة العمل الصحفي.. ممن نعدهم جيل الرواد بكل ما تركوه من بصمة عطاء أوهم مدرسة الصحافة التي نهل منها العديد ممن يعملون في حقل الإعلام اليوم لاشك في أن جل هؤلاء يذكرون فضل الرجل وتلك السمات الأخلاقية التي ميزته وجعلته قريباً من نفوس الجميع فيالأيدي القدر كيف اختطفت منا العديد من هؤلاء الزملاء أمثال طه حيدر محمد الكعبي؟!

ففي الوقت الذي كان يتاهب الرجل لزيارة مدينته الأم بغداد التي ترك فيها زملاء الطفولة والشباب ووجد أمه وأباه وأخوته ومرابع ذكرياته وأجمل لحظات العمر على شواطئ دجلة والفرات وفي تلك الأثناء وعند قرب الشهقة الثانية للحياة وللوعة الحب اللقاء بعد فراق أمتد لخمسة وعشرين عاماً بالتمام والكمال.

كانت سطوة القدر هي الأسرع لإختطاف روحه الزكية.

يوارى الثرى في صدر ثنائية عشقه عدن وهكذا استقر الرجل بين مدينتي عشقه ..حيث شطر الأم والأب والأخوه..وبضعة أروح الأولاد حيدر ومحمد ودلوعته ريحانته..سلامة.

هناك تسكن الأنفاس..والذكريات المرتبطة بالطفولة والشباب وأحضان الأم والحبيبة.

وهنا علقت تلك الروح في ثنايا روح الأولاد.

ليترك لنا الزمن قدراً من الأسى وربما الحب والاعتزاز والفخر.. بمثل تلك الذات البشرية الفريدة .

بالمناسبة..ما زلنا نسأل عن مصير وقدر أسر هؤلاء الأشقاء ممن تشاطروا مع نظرائهم قدر النفي القسري عن وطنهم الأم.

نسأل.

هل يذكر أصدقاء الأمس ممن شاء القدر عودتهم إلى العراق لتحمل مهام جديدة.

هل يخطر ببالهم تقديم شيء من الإنصاف لرفاقهم ممن تركوا أولادهم في فم الأقدار والأنواء والحاجة بعد أن غيب القدر القاسي ذات آبائهم..قبل أن تطأ أقدام العودة أرض الرافدين؟